الطعام سبيل إلى الهوان

بروفيسور عبد الستار قاسم

عرب كثر يحزنون الآن على ما آلت إليه أوضاع الشعب الفلسطيني المالية بعد فوز حماس، وهم يرغبون في التبرع حتى لا يحصل جوع فلسطيني ولا ينقص على الأطفال الحليب. وكثيرون منهم يتمنون على الدول الغربية رفع الحصار المالي ليس رأفة بحماس وإنما بالجوعى والمساكين. ولا يمنع أن نجد بعضهم يطالب الغرب بالانسجام مع طرحه النظري ويحترم مخرجات الديمقراطية الفلسطينية.

لكن الحقيقة المرة لا تسطع فقط في أرض فلسطين، وإنما تمتد لتشمل مختلف أرجاء الوطن العربي ولو بدرجات متفاوتة بين قطر عربي وآخر. ربما لا يعرف العربي أن الوطن العربي يعتمد بحوالي 70% من غذائه على الاستيراد بخاصة من الدول الغربية، وأن هذا الغذاء سيتوقف فيما إذا قرر الغرب أن يغضب على العرب. إذا كانت الأخبار تتحدث الآن عن تجويع الشعب الفلسطيني، فمن المحتمل أن تتحدث غدا عن تجويع الأمة العربية بأكملها، والمفاتيح نحو ذلك بأيديهم.

لم يكن الغرب غافلا عن تطوير مختلف الأساليب والوسائل من أجل خدمة استراتيجيته في المنطقة العربية الإسلامية، ولم يكن العرب على ذكاء لتكون لهم في الأصل استراتيجية نحو البناء المستقبلي. قدم الغرب للعرب مختلف المغريات الاستهلاكية، وأبدع العرب في الحداثة الاستهلاكية وتفوقوا على كل الشعوب. لم يشذ الفلسطينيون عن هذه القاعدة بحيث أن السلطة الفلسطينية لم تتوان عن تدمير البنية الاقتصادية الهشة للفلسطينيين اعتمادا منها على الأموال الغربية. البلدان العربية لم تكن أكثر فطنة من الفلسطينيين واعتمدت على ثرواتها الطبيعية أو على المعونات الخارجية لتنمية عقليتها الاستهلاكية. لقد ربط الغرب لقمة خبز العرب بعجلته الاقتصادية، وهيمن بالتالي على إرادتهم السياسية.

في هذا يتساوى الثري مع الفقير. شعب فلسطين لا يملك المال ليشتري البضائع والمواد الغذائية، والعرب قد لا يجدون من يبيعهم؛ وما فائدة كل الذهب والماس إذا كان المرء لا يستطيع شراء رغيف الخبز؟ بهذا نكون جميعا فقراء لا نقوى على توفير لقمة الخبز إلا إذا رضي غيرنا عنا، ولا أظنه يرضى قبل أن نلبي له ما يطلب ونتحول إلى طيعين ينفذون ما يؤمرون. وإذا كان لنا أن نحزن فلا ننسى أن وضع الأمة كله محزن وليس وضع الشعب الفلسطيني فقط.

تحرص الأمم التي تعقل أولا على تأمين غذائها حتى لا تكون عرضة للضغط في الحاجات الأساسية للإنسان، وهي تتوجه نحو الزراعة أولا لكي تضمن إنتاجا يفي بالمتطلبات الغذائية المتزايدة للسكان المتزايدين عددا. هذا هو أصلا أساس التفكير الاستراتيجي لمن يريد أن يبقى صاحب قرار وإرادة حرة، وقدرة على التعاون مع الآخرين فيما يعود بالفائدة على الجميع. تحرص الأمم على استصلاح الأرض واستغلال موارد المياه وتوفير الدعم للفلاحين والمزارعين لكي يستمروا في عملية الإنتاج في جو مريح من البحبوحة المادية. والدول تعي أن نصيب الزراعة من الناتج القومي ضئيل جدا بالمقارنة مع نصيب الصناعة أو السياحة، لكن نصيبها في توفير الأمن والحماية كبير جدا ويأتي قبل الجيوش وسلاحها.

هل لاحظ العربي كيف أن العراق بلد الخيرات والمياه وافقت على برنامج "النفط مقابل الغذاء" إبان الحصار وذلك لأن الدولة لم تكن قادرة على توفير الغذاء لأبنائها؟ وهل يلاحظ أن في السودان من يتضورون جوعا في حين أن بمقدور السودان سد جزء كبير من الاحتياجات الغذائية

للأمة؟ وألا يلاحظ كيف أن أهل اليمن اقتلعوا البن من أجل زراعة القات؟ بالنظر إلى كل هذا، ليس من واجبنا فقط أن نحزن، بل علينا أن نقيم حفلات اللطم والعويل على أنفسنا الميتة.

الشعب الفلسطيني يقع تحت الحصار، ولا تملك أي دولة عربية أو مصرف عربي قدرة على تحويل الأموال لهذا الشعب. يسمع العربي عبارات التضامن والتعاطف من قبل السياسيين والناس العاديين، لكن يبقى الفعل مقيدا بإرادة مسحوقة. وإذا حصل غدا أن حاصرت البلدان الغربية دولا عربية ثرية فمن المحتمل ألا تتمكن الدول العربية الأخرى شحن الأغذية إلى المحاصرين ذلك وفق الإرادة الغربية. نحن لا نستطيع إيصال المال إلى أصحاب الميزانيات الخاوية، ولا نستطيع إيصال الغذاء إلى أصحاب الرفوف الخالية.

من يمنع نفسه من تطوير قدراته الغذائية ويستهين بفلاحة الأرض والإنتاج الزراعي إنما يقرر التخلي عن إرادته الحرة لصالح التبعية للآخرين الذين لا شك سيستعملون هذه القوة في الوقت الذي يرونه مناسبا لتنفيذ أهدافهم وتحقيق مصالحهم. وعندما تقع الفأس في الرأس، لا ينفع الندم ولا ينجينا البكاء والعويل. وعندها سيكثر الحديث عن المؤامرات الاستعمارية، وعن الأحقاد الصهيونية التي تضغط على الإدارة الأمريكية لإهانة العرب، وإلى غير ذلك من المقولات التقليدية التي طالما اختبأنا وراءها.

الذي لا يحرص على إنتاج لقمة خبزه، ويضع طعامه تحت رحمة غيره الذي قد يكون عدوا، أو من المحتمل أن يصبح عدوا فإنما هو المتآمر على نفسه، وهو يقدم خدمات طوعية للذين يتهمهم بالتآمر عليه. نحن العرب نمارس العداء ضد أنفسنا، ونحن نخذل أنفسنا بأنفسنا. فهل نصحو يوما ليحدث كل منا الآخر عن تحرير لقمة الخبز عسى في ذلك ما يجعل لنا بعض الكبرياء؟